صور من الحياة :

قبعة تتزوج

للأستاذ كامل محمود حبيب

أما قصة زواجك أنت — يا صاحب القبعة — فهي عجب من العجب ، قصة فيها سلوى للنفس وعظة للعقل ومتعة للقلب .

اتذكر يوم أن جئت ، أيها الفيلسوف ، من البلد الأجنبي — بعد أن نيّفت على الأربعين — وإن رأسك ليزدحم بالخواطر والخرافات ، وإن قلبك ليجيش بالآمال والأماني ، وإن فلسفتك لتتحدث إليك بأمر .

ونظرت حواليك فتراءيت في عين نفسك عزباً تضطرب في الحياة وحيداً منبوذاً ، والأيام تنطوي في سرعة لتدفعك نحو الشيخوخة في غير هوادة ولا لين ، وأنت تفتقد العطف والحنان فلا تستشعر الهدوء في الدار ولا الاستقرار في العمل ، وإن وظيفتك لتدر عليك مايفيض على حاجات نفسك ورغبات قلبك ، وضقت بحياة القلق والاضطراب فعقدت النية على أن تتزوج .

وسيطرت عليك الفكرة فشغلت قلبك وعقلك ، واستولت على مشاعرك فأرّقت جفنيك وأزعجتك عن مرقدك ، وبدا عليك الوجوم والصمت لأنك انطويت على نفسك زماناً فتفقدت الأهل والصاحب والصديق فأغلق أمامك السبيل إلى الزوجة . ثم وجدت متنفساً حين جلست إلى زميل لك تحدثه حديثك وتقول : « إنني أشعر — دائماً — بالضياع والشقاء ، فالمرء رجل مقطوع الصلات بجذوذ العلائق ، يجد الهم والأسى في داره ، ويحس الضيق والملل في خلوته ، ويلمس الضنى والعذاب في وحدته ، تتراءى له — دائماً — أخيلة مفزعة تزعجه عن الدار ، وتصرفه عن العمل ، وتملأ ذهنه بالخرافات ، وتحطم أعصابه بالقلق ، لا تهدأ له خاطره ولا يقر له قرار ، وأنى له الهدوء وهو يرى نفسه ألقّ في ناحية من حجرة ، هملا بين هول من الأدوات والأثاث والملابس . فإن أبق الخادم طار صوابه ، وتناثرت خواطره ، وتشعثت حاجاته ، رغم أنه يثق بأن الخادم رجل يسرق ماله ويستلبه من وقته ويزعجه عن راحته ، وهو هم لايدفع إلا بهم آخر . وإن مرض انحط في فراشه ليكون بقايا إنسان قذر تافه تنطوي الساعات وإن نفسه لتئن أنيناً رهيباً ، وإن قلبه ليبكي بكاء مراً . لهذا — ياصاحبي — فأنا أشعر — دائماً — بالضياع والشقاء » ..

وأطرق زميلك ساعة من زمان ثم قال : « لا بأس عليك ، ستجد في بيت فلان بك بغيتك وتحس راحة نفسك ، فهو رجل ذو مكانة وشأن وذو ثراء عريض ... وابنته فتاة في مقتبل العمر ونضارة الشباب ، تتألق بهاء وجمالا وتشع رونقاً وصفاء ، فيها جاذبية الأنثى وخفر العذراء ، لم يلوثها بهرج المدنية ، ولا دنسها زيف الحياة ، وهي قد تخرجت في الجامعة منذ قريب ... وأبوها — سعادة البك — فيه الحصافة والرأي ، وبينه وبيني صلات قربى ووشائج نسب ... وأنت — في رأيي — خير من يتقدم ليخطب ابنته ، فهو لايطمع في مال ، ولايسعى إلى جاه ، ولكنه يريد رجلا فيه الرزانة والعقل ، لأنه يخشى شباب الجيل ، وإن فيهم ميوعة ولينا ، وإن فيهم استهتاراً وضعفاً » ...

وتفتح قلبك — لأول مرة في الحياة — لحديث زميلك حين أحسست فيه النصيحة والإخلاص فقلت : « لا ضير ، ولكن عسى أن يكون رائدي وأنا لا أستطيع أن أجد السبيل إليه وحدي ؟ »

فقال لك الزميل : « إن شئت رافقتك إليه » ..

وفي أمسية يوم من أيام الصيف انطلقت — يا صاحب القبعة — بصحبة زميلك إلى دار سعادة البك ، وجلستما إليه ساعة من زمان ، ثم خرج زميلك وحده ... خرج ليخلّفك إلى جوار البك ، وقد أنس كل منكما بصاحبه واطمأن إلى حديثه ، فسميت الفتاة عليك بعد أيام ، ثم خطبت إليك ...

وهدأت ثائرة نفسك ، واستقرت أفكارك إلى شاطئ أمين ... ولكن ترى فيم كنت تفكر ؟ آه ... إن فلسفتك العقدة قد لصقت بك فلم تتركك ساعة واحدة في حياتك ... لقد خيل إليك أن سعادة البك رجل يستطيع أن يشبع نهم طمعك وأن ينتع غلة أنانيتك ، وأن ابنته فتاة تستطيع أن تمهد لك السبيل الوعر ، وتفتح أمامك الباب الموصد ، ثم تدفعك إلى

الهدف في سهولة ويسر ، وأنت من ورائها تندفع حتى تبلغ ، فتركت مسكنك القذر الوضيع ورحت تعد داراً أنيقة لاستقبال العروس المنتظرة ، ونبذت ملابسك القذرة الشمئة لتأنق في الجديد الغالي ليروق مظهرك في ناظري أهل الزوجة ، وتصنعت الرزانة والعقل لتخدعهم بثقافتك الفجة ، وتجملت بالرقة والذوق لتصرفهم عن خواطرك السقيمة ، وخرجت من عزلتك القاتلة لتكون رجلا ليس القيمة حيناً أو بعض حين .

وانطلى على سعادة البك ما تكلفت من قول ومن فعل فحياك بالثقة ، وخصك بالتقدير ، وقربك إلى قلبه ونفسه — وانما أنت الفتاة إليك ففتحت لك باب حجرتها لتجلس إليها في خلوة ، وتحدثها في غير رقبة .

واندفعت تزين للفتاة أن تصحبك إلى السينما وإلى المسرح وإلى الندى ، فما تمنعت ولا تأبت ، وهي لا ترى بأساً في ما تفعل لأنك زوجها — وتماديت في غيك فأردت أن تحملها على أن تنزع عن نفسها تقاليد الأسرة ، وأن تمتهن تاريخها — وهو قد تدفق في عروقها منذ زمان — لترود معك الملاهي الوضيعة ، وإن كثيراً منها لينضم على فنون من الخلاعة والفجور ، ويحوي ألواناً من الخداع والإغراء ، فهي تثير في الرجل الدوافع الحيوانية ، وتبذر في المرأة غراس الثورة على الدار والزوج والأولاد ، وألقت الفتاة إليك السلم — بادئ الرأي — ثم استيقظت التقاليد في عقلها فرفضت أن ترتدع في هذه الهاوية ، فرميتها أنت بالجمود والرجعية ، واحتقرتها لأنها تمسكت بالشرف وتشبثت بالكرامة .

لقد كنت تريدها على أن تندفع في الغواية لحاجة في نفسك .

وأرادت فلسفتك الشيطانية أن تمكر بالفتاة فتخدعها عن نفسها فتتعلم الرقص وتصاحب رفاقك وتتحدث إلى صحابك ، تأخذ منهم وتعطي ، ولكنها كانت قد جبلت على الحياء وطبعت على الخجل فرأت الطريق أمامها وعراً وبدت لها الغاية صعبة ، فتراجعت ..

وجلست إليها — ذات مرة — تخدعها عن نفسها وتغريها أن تصحبك لتزورا معاً دار فلان باشا ، وزعمت بأنه من ذوي قرابتك ، فانطلقتما معاً إلى داره مرات ومرات . واستقبلها الباشا — بادئ ذي بدء — في احترام وشملها بالعطف وانهالت عليها منه الهدايا ، ثم راح يداعبها في رقة ويمازحها في ظرف ، وهي تطمئن إلى عطفه وتسكن إلى حديثه ، غير أنه ما لبث أن سقط عن وجهه قناع التصنع فانكشف عن ذئب مفترس في مسلاخ إنسان ، وامتدت يد الباشا إلى الفتاة فذعرت ، وأوجست خيفة منه ثم أقبلت عليك تنقض أمامك ذات نفسها فأغضيت عن حديثها وامتهنت هواجس نفسها على حين أنك توقن بأن هذا الباشا شيخ داعر شرير لا يتورع عن نقيصة ولا يترفع عن دنيئة . وعز على الفتاة أن تلمس فيك هذا الخلق الواهي المنحل فلاذت بعقلها واعتصمت بكريم سجيتها ، ورفضت أن توافقك — بعدها — إلى دار الباشا ، وأصررت أنت وأصرت هي ، ثم فزعت عنك إلى أبيها وفي قلبها أسى يتضرم وفي عينيها عبرات تترقرق .

وعجب البك أن يرى ابنته تنطوي عن زوجها وتهرب من لقياه ، وعلى وجهها أثر الحزن وفي عينيها أثر البكاء ، فجلس إليها يريد أن يهدىء من ثورتها وأن يمسح على أتراحها بقلبه الرفيق ، فأجهشت للبكاء وهي تقص قصة زوجها الفيلسوف الذي ليس القيمة حيناً من الزمان وهو يدفعها إلى الهاوية مرة بعد مرة ثم يسوقها إلى دار الباشا الداعر لتنزل هناك عن كرامتها وتتخلى عن شرفها .

وثار البك لما سمع ثورة قذفت بالفيلسوف المبقري ، صاحب القيمة ، إلى خارج الدار بعد أن سامه الاحتقار والمهانة ، قذفت به إلى خارج الدار لأنه حين لبس القيمة نبذ المعاني السامية للدين والوطن و ...

وأصابتني الدهشة حين رأيتك — يا صاحب القيمة — تنصرف عن دار البك فلا تزورها وتنفر من زوجك فلا تلقاها ، فذهبت أستوضح الأمر فزورت كلاماً يمتهن عقل الفتاة المصرية ويضع من قدرها ويحط من خطرها ، ويتهمها بالرجعية والجمود . فما انطلى على الزور ، وأنا أعرف أنك استنزفت كل ما ادخرت في سني حياتك لتهيىء داراً أنيقة تستقبل فيها عروسك الجميلة ولتخلق من نفسك رجلاً أنيقاً جذاباً ولتغمر فتاتك بالهدايا الثمينة الخلابة . فعلت كل ذلك وأنت كز الجبلة شحيح الكف ضنين بالمال . فيا ليت شعري هل حملت نفسك مالا تطيق لترضي سعادة البك ولتخدع الفتاة عن نفسها ؟

آه ، يا صاحب القيمة ، لقد خسرت مالك وشرفك لأنك رفضت أن تكون مصرياً يتمسك بالمعاني السامية للدين والوطن و .

فاضل محمود حبيب